فن المقال الصحفي في رسائل الجاحظ

م.د. محمود كاظم موات الغزي
كلية الامام الكاظم –ع- للعلوم الاسلامية الجامعة فرع ذي قار

الملخص:

تناولنا في هذا البحث التراث الفكري العربي الاصيل المتمثل برسائل الجاحظ أدباً وصحافة ، وسيثبت إن شاء الله في هذا البحث أن كثيراً من فنون وأنماط وأطر الحاضر الإتصالي الصحفي كانت لها جذورها ، بل ومقدماتها وطلائعها- الاكثر تقدماً في أحيان كثيرة – تلك التي رصدتها وتابعتها وحررتها وسجلتها ونشرتها منذ مئات السنين ، أقلام عدد غير قليل من رواد الفكر والأدب والثقافة العربية من بينهم الجاحظ في رسائله ،وقد ظهرت من بين سطور إبداعه.وقد حاولنا في هذا البحث أن نمد الجسور بين رسائل الجاحظ وبين الفنون التحريرية الصحفية التي نراها فوق صفحات الجرائد والمجلات اليوم فوجدنا أن الجاحظ كان للأدب والصحافة معاً ، و أنه ممثل صادق لطلائع هؤلاء الرجال الذين كان " نصفهم للأدب ونصفهم للصحافة" أكثر مما كانوا لغيرهما ، أو للمعارف الأخر ، فإن الإتجاه الطبيعي لمسيرة هذه الكلمات أن نعرف أولاً بهذين الأدب والصحافة معاً. فالجاحظ كما يبحث ويختزن في فكره ، ويجمع الشتات ، ويؤلف بينه ، فقط كان كذلك يقوم بجمع مادته بطريقة يعرفها تماماً مخبرو اليوم ومحررو الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية .

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

Abstract

We dealt with in this research Arab intellectual heritage inherent of letters bigeye literature and journalism, and will prove, God willing, in this research that many of the arts, patterns and frameworks present communication journalist was his roots, and even introductions and Talaiaha- most advanced in many cases - those that monitored and followed up and liberated and recorded and published hundreds of years ago, pens are quite a few of the pioneers of thought, literature and Arab culture, including bigeye in his letters, has emerged from between the lines of Abdall.oukd tried in this research to extend bridges between bigeye messages between journalistic editorial arts that we see on the pages of newspapers and magazines today We found that bigeye was for literature and the press together , and it is representative of the honest men who were "half of the literature and half of them to the press" more Vanguards than they were for the other, or the other of the knowledge, the natural direction of the path of these words should first know these two literature and press together. Valjahz also examines and stores in the idea, and combines the Diaspora, and compose himself, was just as well that collects article in a manner known to completely informers today and . combines diaspora editors of topics, reports and investigative journalism.

المقدمـــــة :

الحمـد لله رب العـالمين والصـلاة والسـلام على أشـرف الخلـق أجمعـين محمد بـن عبـد الله خـاتم النبيـين وعلى أهـل بيته الطيبين الطاهرين ...وبعد :

أننـا نعـرف أن الأدب أدب و أن الصـحافة صـحافة ، لكننـا أيضـاً ، مـن خـلال دراسـات عديـدة ، ولقـاءات متصـلة مـع أصـحاب التجربـة الصـحفية الحيـة والثريـة ،أن للاعـلام بلاغتـه وأن هنـاك مـايمكن أن نطلـق عليـه اليـوم ، وماسـوف نطلـق عليـه غـداً "الأدب الصـحفي" وهمـا "بلاغـة الاعـلام" مـن جانـب و "الأدب الصـحفي " من جانـب آخـر لابـد وأن تقـوم صـلات النسـب والقرابـة ، بينهمـا وبـين البلاغـة بمعناهـا الأدبـي ، لأنهـا المعـين الأساس لهما .

أصـبح الجـاحظ مـن خـلال نتاجـه الأدبـي ينتمي إلى أعضـاء الأسـرة الصـحفية الـذي يجمـع فـي شخصـه الواحـد بـين الاديـب وبـين الصـحفي على الـرغم مما في ذلـك مـن صـعوبة يبررهـا هنـا أنـه لايكـون شخصـاً عاديـاً ، أو محـرراً عاديـاً ، وإنمـا مـن هـذه القلـة ، أو القلـة النـادرة مـن الموهـوبين والمبـدعين . فالجـاحظ أضـفى على نتاجـه صـفة صـحفية ، مـن خـلال أفكـاره وتوجهاتـه واهتماماتـه التي يمكـن أن نقـول عنهـا أنهـا كانـت صـحفية على وفـق التعبير الحديث ، والتي سبق بها غيره .

والهـدف مـن وراء هـذه الدراسـة الوقـوف على أثـر كتابـات الجـاحظ لاسـيما رسـائله في المقـال الصـحفي ؛ لـربط الماضـي بالحاضـر ومـن أجـل اسـتلهام تجـارب السـلف وتتبـع آثـارهم ووضـعها فـي مكانهـا الصـحيح . والهـدف الآخـر هـو دراسـة الأدب والصـحافة معـاً بفكـر جديـد محايـد وموضـوعي لكي نملـك أدبـاً صـحفياً جـديراً بالبحث والدرس .

- **التعريف بالعنوان :**

مثلمـا يبـدع الأديـب في اختيـاره لفكـرة مقالتـه الأدبيـة ، أوصـورته القلميـة ، أو إنتقـاء أشـخاص قصـته ، أو نمـاذج مسـرحيته ، فـأن إبـداعاً ممـاثلاً يقـوم بـه الصـحفي والممـارس والخبيـر – ولـيس أي صـحفي – مـن أجـل العثـور على الفكـرة المناسـبة ، الجديـدة ، الطازجـة التـي لـم يسـبق إليهـا أحـد ، أو العثـور على الزاويـة الجديـدة التي يتنـاول مـن خلالهـا الفكـرة القديمـة ،أو المطروقـة ، وعنـدما يعثر المحـرر على مثـل هـذه الفكـرة ، فإنـه يحـق لنـا أن نقـول أنهـا تـدخل ضـمن بـاب "الأدب الصحفي" .

هـذا جانـب مـن جوانـب الإبـداع الجـاحظي ، أدبـاً وصحافةً معـاً ، ممـا يبقى موقـف كتاباتـه مـن هـذا الفـن الصـحفي المتقـدم ، بأنواعـه العديـدة والمختلفـة وأيـن تقـع منهـا ؟ .. لكـن مـن الطبيعي - قبـل ذلـك كلـه- إن نمـر مـروراً عـابراً على بعـض تعريفـات الفـن والمقـال الصـحفي والرسـائل، وعلـى ماتعنيـه هـذه المصـطلحات والمفـاهيم نفسها ، واستعمالاتها العربية ...

الصـحافة ضـرب مـن الفـن ، ولهـا إبـداعها ، أو جوانـب الإبـداع فيهـا ، فكـراً وبحثـاً وتنفيـذاً وتحريـراً وتصـويراً وإخراجـاً فهي مـن هـذه الزاويـة الأخيرة "الفنيـة" التي تتحـدث بـالفكر الصـحفي الملهـم وعنـه ، تأخـذ كثيراً مـن معـالم الأدب ويشـتركان معـاً في هـذا الجانـب الفني ، فكمـا أن لـلأدب فنـاً ، فالصـحافة فـن أيضـاً . فـالفن في اللغـة " الغصـن"مفرد "أغصـان"وياتي بمعنـى "لـون"

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

مفرد الوان ويجمع "فن أو فنن أو أفنان أو فنون "[١] كقوله تعالى ((ذواتا أفنان))[٢] والتفنين التخليط ، يقال ثوب فيه تفنين إذا كانت له طرائق ليس من جنسه [٣]. ويقال " رجل يفنن الكلام أي يشتق في فنن بعد فن . والافانين الأساليب وهي أجناس الكلام وأفتن الرجل في حديثه وخطبته إذا جاء بالأفانين "[٤]ويقول الشيخ عبد الله البستاني : " أن هذا المصطلح توسع استعماله وتعددت دلالاته فأطلقوه على الصناعة والعلم وعلى بعض المقالة[٥] . أما في الإصطلاح فالفن احتراف الكتابة والبحث عن وسائل الإبداع والجمال ، ولا نقصد به الجمال وحده وإنما نقصد الجمال الذي استحدثه فنان[٦]، ومعنى الفن ايضاً " الصناعة الكلامية"[٧] فهو إذن يطلق على كل عمل فيه جمال وطرائق وإبداع ، فنقول مثلاً فن المقالة ،وفن الرواية ، وفن القصة ، وفن المسرحية ،وفن الرسالة أو فن الزراعة ، وفن الصناعة ،وفن الخياطة، وفن الغناء ، وفن التمثيل ، وفن الرسم ،... الخ

أما المقال في اللغة :فمصدر ميمي من قال ،قال بـ ، قال عن ، قال لـ : وهو القول ، وفي الحديث الشريف "إن لصاحب الحق مقالاً وافضلكم احسنكم قضاء* " [٨].ومقالة : المقال : هو القول أي الكلام المنطوق والشفاهي الذي يقصد به إحداث تأثير معين ، ثم أخذت الشكل الكتابي أو المدون بعد ذلك للدلالة على ألوان الكتابات الأدبية المختلفة ، التي مارسها الكتاب خلال نهاية العصر الاموي ، وعلى مدى العصور التالية خاصة العباسي ..ومن هنا ، ومنذ العصر الجاهلي ونحن نطالع أمثال ، مقال صدق ، مقال حق ، مقال سوء[٩]،... الخ وقد وردت شعراً مثل قول أوس بن حجر [١٠]:

ويكفي المقالة أصل الدحا ل غير معيب ولا غائب

وكذلك قال ديوان ابن أبي حفصة [١١]:

أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

أمّا في الاصطلاح فالمقال هوبحث قصير في موضوع أدبي ينشر في جريدة أو مجلة، أو "اسم يطلق على الكتابات التي لايدعي أصحابها العمق في بحثها أو لاحاطة التامة في معالجتها ، ذلك لإن كلمة مقال تعني محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئياً أو تجربة أولية "[١٢] أو هو شكل أدبي يستخدم النثر عادة في توصيل الفكرة من خلال طول معتدل يدور حول موضوع محدد ، ويكون الموضوع عادةً إخبارياً أو تعليمياً أو تحليلياً أي إنه يجمع بين الرأي والخبر [١٣].

أما الصحف في اللغة مفرد صحيفة:" الورقة التي يكتب فيها" أو " الكتاب وجمعها صحائف وصحف " والصحيفة هي" التي يكتب فيها "[١٤] ، وفي التنزيل " صحف إبراهيم وموسى " [١٥]، يعني الكتب المنزلة عليهما . والمصحف : الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه أصحف أي جمعت فيه الصحف ، الصحف والصحفي الذي يروي الخطأ على قراءة المصحف باشباه الحروف "[١٦].

أما الصحافة في الإصطلاح :فهي "مطبوع دوري ينشر الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية ..الخ ويشرحها ويعلق عليها "[١٧]، ويقول باحث آخر : " الصحافة مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

المجتمع وتنميه"[١٨] ، فالمقال الصحفي يجمع الأفكار والخواطر والآراء ووجهات النظر المتصلة بفكر الكاتب من جهة وبنبض القراء واهتماماتهم من جهة أخرى وهويكتب للنشر في الصحف والمجلات أولا ، في وقت معين ، وتختلف أطواله من مقال إلى آخر على وفق نوعية المادة المطروحة به وطبيعتها. إذن المقال الصحفي مادة تحريرية يقدمها الكاتب الصحفي استناداً إلى فكرة يحصل عليها من خلال حضوره الذهني الصحفي ومعايشته للأحداث وعلاقاته الأجتماعية واتصالاته وقراءاته وخطابات القراء ومكالماتهم الهاتفية ومايرد عبر الاثير وذلك في إطار يفسرها للقراء ويحيطهم بأبعادها ويوجههم بشأنها وقد يقوم بتأييدها أو معارضتها بطريقة تحمل طابعه في التفكير وأسلوبه في التعبير وذلك للنشر في الوقت المناسب متلائمة مع طابع الصحيفة أو المجلة واهتمامات القراء وصالح الفرد للمجتمع [١٩].

أما **الرسائل** :فهي من أهم فنون الانشاء ذات الصبغة الكتابية في الخطاب النثري، وهي مشتقّة من(ر س ل) وهي لغة:" التوجيه . وقد أرسل إليه ،والرسالة جمع االرسائل[٢٠]،" وتأتي بعنى "الرجعة والرجعان والرجعي بضمهن جواب الرسالة"[٢١] ، و" راسله في كذا وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتراسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول"[٢٢]. **أما في الأصطلاح** : وهي كما يقول الجرجاني" المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد"[٢٣]، وقريب من هذا تعريف (المناوي) القائل:" الرسالة انبعاث أمر المرسل إلى المرسل إليه وأصلها المجلة أي الصحيفة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد"[٢٤]

وممكن أن نقول هي مقالة، أو هي كتاب، وقد تجيء دراسة أو تشير إلى تحرير مكتوب أو شفوي، وهي لا تخرج عن معنى التسهيل في الإرسال والمتابعة . فالجاحظ كما قلنا[*] أحد مؤسسي فن الرسائل إذ اعتنى بتأليفها، وقد أحصى له النديم ما يزيد على مائة وسبعين كتاباً، أغلبها رسائل طويلة أو قصيرة بعضها ضاع وبعضها وصل[٢٥] ، والمتأمّل في رسائله يرى فيها طابع لغة الصحيفة وإسلوبها، تتجلّى بوضوح فهي نص موقع يعلو فيه الإيقاع والملاءمات الوزنية، بين فواصل الفقرات في الجمل في الحد الأدنى، وقد يتجاوز ذلك إلى الملاءمة بين طول الفقرات والملاءمات الوزنية الداخلية في الجملة الإنشائية، فهو يهدف إلى إشاعة التلوين الصوتي فضلاً عن زيادة الإطناب والاستطراد في الألفاظ والجمل ، ومزج الجد بالهزل، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق والاعتراض بالجمل الدعائية.. وكذلك الافتنان والتوازن وقصر العبارات.

** فن المقال الصحفي في رسائل الجاحظ :

ومن خلال ما تقدم توصلنا إلى أهم تعريفات عنوان البحث لنرى بعد ذلك إلى أي حد توفرت أمثال هذه المعالم للكتابات الجاحظية ، التي نقول إنها يصح أن تكون من جذور ومقدمات وطلائع مقالات اليوم ... وفي ضوء مايقدمه لنا التراث الجاحظي نستطيع أن نقول أنه وبصرف النظر عن جذور بعض المواد التحريرية السابقة التي كان الطابع الإنتاجي الجاحظي فيها يغلب عليه طابع الجمع والنقل ، وما يسبقها من رصد ، وإثبات ثم تحرير فإن الطابع الإنتاجي الجاحظي هنا

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

يختلف كثيراً ، إذ هو طابع ذاتي تعبيري كامل ، وصحيح إنه يقوم على نفس عناصر الإنتاج والمصادر المختلفة ، كـ ((القرآن الكريم والحديث النبوي والكتب والرسائل المؤلفة)).. ولكن تبقى بعد ذلك رؤيته الذاتية الخاصة في كل ما سبق وحصل عليه ، بل ولماذا لاأقول ، رؤيته الموضوعية أيضاً ؟ .. ومن هنا ومن خلال الرؤيتين ، الذاتية والموضوعية تحقق مانقول من إنتاج النوعين من المقالات معاً ، الأدبية والعلمية لينبثق منها في احيان كثيرة – رغم نشر الصحف لهما أيضاً – ما نطلق عليه تعبيراً لمقدمات المقال الصحفي ، تلك التي ارتفع مستوى بعضها إلى حد كبير... وفي تعبير آخر نقول إنه إذا كان الجاحظ في مادته التي اقتربت من الفنون السابقة بمثابة هذا (الجامع الماهر) فإنه هنا، ذلك الرجل نفسه وكذا المفسر والمعلق والمحلل والناقد والمؤلف معاً.

وقد جمعت رسائل الجاحظ أبرز خصائص المقال الصحفي التي جاءت ضمن التعريفات ، بل تجاوزتها إلى غيرها من الخصائص وهي تعطي أفكار المؤلف ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات :

- الطول المعتدل (في احيان كثيرة والمتغيير على وفق الضرورة).
- الموضوع المحدد (في أغلب الأحول) .
- الطابع الإخباري والتعليمي والتحليلي(إضافة الى الطابع العلمي والتفسيري والنقدي والفكاهي والطابع العام أيضاً)
- لم يدع الجاحظ العمق في بحثه دائماً ، أو الإحاطة التامة به ، وإنما أشار إلى بعض مايكتنفه احياناً من مثالب ، ونبه إلى مايمكن أن يقوم من ثغرات ، مرتبطة بمصادره ، خاصة البشرية ، والمترجمة . لكن هذه المادة المقالية الجاحظية ، كانت أيضاً وفي كثير من الأحوال تكاد تمثل ((محاولة)) لتناول موضوع جديد على الكاتبين من أمثاله . أو لم تعرفه غير القلة منهم ، لصعوبته أو قلة مصادره ، أو غرابته ، أوتوقع عدم احتفاء الناس – خاصة علية القوم من أُمراء و وزراء وأثرياء وهم الذين يهمون هؤلاء وغيرهم وحتى من عامة القراء أيضاً ، الذين اقبلوا على الوان إنتاجه لأنه طرق موضوعات تهمهم ، وهي في نفس الوقت كتابة تعكس تجربة

((ميدانية أولية))أو ((تطبيقاً مبدئياً))

وأكثر رسائل الجاحظ التي اقتربت من هذه المقدمات والطلائع المقالية الصحيفية كانت كذلك مما استند إلى فكرة حصل عليها من وراء هذا الحضور الذهني الأدبي والصحفي معاً، وكذا من خلال معايشته للأحداث وعلاقاته الإجتماعية واتصالاته وقراءاته .. كما جاءت كذلك تحمل طابعه في التفكير وإسلوبه في التعبير ..

وقد يسأل سائل : ماهي أبرز أنواع المقالات الحالية التي تقترب من رسائل الجاحظ . أو هل اقتربت بعض أنواع رسائل الجاحظ من مقالات اليوم إلى الحد الذي يجوز معه أن نطلق عليها أمثال هذه التعبيرات الحديثة ؟ وماهي هذه الأنواع ؟

وقبل البدء بالجواب لابد من استعراض أبرز أنواع المقال الصحفي لكي نقارب بين المقالين الحديث المتمثل بمقال اليوم والقديم المتمثل بفن الرسائل عند الجاحظ . وأن من أهم أنواع مقال اليوم هو :

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

- المقال الصحفي العام ،المقال الإفتتاحي أو الإفتتاحية ، مقال التعليق أو التعليق الصحفي ،المقال التفسيري ،المقال القائد الموقع ، مقال العمود أو مقال الفقرة القصيرة ، مقال التجربة الخاصة ((اليوميات الصحفية))..الخواطر والتأملات ،المقال التحليلي ،المقال العرضي أو الإستعراضي ، المقال المختصر ، المقال المتخصص ، المقال الفكاهي المقال المهني ((في غير الإفتتاحيات)) ، مقال المناسبات، المقال الإعلاني[٢٦].

من خلال النظرة الفاحصة والمدققة ، وفي ضوء أبرز خصائص كل نوع من أنواع هذه المقالات الصحفية ، ومايتصل به من ملامح وأبعاد ،وما يفرق بين كل نوع منها ، نلاحظ إن بالإمكان القول ، بأن رسائل الجاحظ لها وجودها ولها كيانها ، ولها موقعها ضمن ما ورد في القائمة السابقة ولكن _ من زاوية أخرى _ فإن هذا الوجود نفسه ،وهذا الكيان ذاته ، وهذا الموقع الذي احتلته ، لم يكن وفي جميع الأحوال وبالنسبة لجميع الوان الكتابة الجاحظية على درجة واحدة ، أويحتل نفس المساحة ، أو يقترب اقترابا نمطياً، وفي جميع الأحوال من هذه الأنواع من المقالات الصحفية ...

هو وجود نعم ، اقتراب أيضاً ، لكنه اقتراب يختلف من مقال لآخر ، أومن نوعية لأخرى ، شدةوضعفاً.ومن هنا يقول إن هناك أربع درجات من الصلة القائمة بين أنواع هذه المقالات الصحفية من جانب ، وبين الوان الكتابة الجاحظية من جانب آخر ، وهذه الدرجات هي :

مقالات نفصل بينها وبين النتاج الجاحظي مسافة بعيدة ، وذلك بوضعها الحالي ، وصورتها التي تعرفها عليها صحافة اليوم ، على الرغم من وجودها في الدائرة الجاحظية .

مقالات اقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا مفعولاً وطيباً .

مقالات وقفت الكتابات الجاحظية في نفس مواقعها واحتلت نفس مساحاتها بحيث تعتبر هذه الأخيرة بمثابة مقدماتها أو طلائعها الكاملة ، أوبداياتها الحقيقية ..

مقالات شكلت وضعاً آخر ،حيث اختلف صلتها بالكتابة الجاحظية ، من مقال لآخر من بين نوعيتها الواحدة ..

أمّا عن النوع الأول من أنواع هذه المقالات ، وهي التي تفصل بين المادة الجاحظية وبينها مسافة بعيدة ، على الرغم من وجودها و_على الأصح _ وجود ما يشبهها في الكتابات الجاحظية ..فقد كانت هي وبإختصار شديد يتلاءم مع هذه الصلة نفسها .

(أ) المقال المختصر:

ويعني مايقدمه محرر من المحررين أو كاتب من الكاتبين من تقديم مادة كاتب آخر يغلب عليها طابع الإختصار لأهم ماجاء بالمادة الأولى ، وهي في أغلب الأحوال ،كتاب جديد لكاتب عربي ، أو كتاب مترجم لأجنبي ، بحيث يقوم المحرر بتقديم أهم أفكاره ، وعرض أهم القضايا التي تناولها ، بينما يقتصر دوره عند هذا الحد ، ولايتعداه إلى نقد هذا الكتاب نفسه ،أو الحكم له أو عليه ، و أوضح الهدف هو تعريفي ثقافي بالدرجة الأولى ،يرتبط ارتباطاً شديداً بإحدى

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

صور النشاط الصحفي الحديث ،في مجال الأدب أو السياسة أو الإقتصاد أو الفن ، خاصة المجال السياسي ، لاسيما تلك الكتب التي تؤلف عن أحداث الساعة أو قصص حياة الزعماء ، أومذاكراتهم ، وما إلى ذلك كله، وفي الغالب يؤلفها أقرب الناس اليهم ، أو بعض من التقى من الصحفيين أو هم أنفسهم[٢٧].

ومن هنا فإننا لم نجد _إلا قليلاً_ أمثال هذه المقالات المختصرة ،في رسائل الجاحظ وإن وجد مايشبهها في بعض رسائله السياسية ، أو تناولت الشعوب والأقوام المختلفة .. وأوضح أيضاً ، إن ذلك يختلف عن مجرد تقديمه لبعض أفكار الآخرين ، أو ماقاموا بطرحه أو تناوله من قضايا خلال كتبهم أو رسائلهم .. مما كان يأتي عرضها ، وفي ثنايا أو تضاعيف كتاباته المختلفة ، لأن الفرق كبير بين هذه الصور ، وبين المقالات المختصرة ، التي تفرد لحالها ، ويكون الإختصار هو الأصل والأساس فيها ، كما ترتبط هي بخصائص هذا المقال الفنية ، شكلاً ومضموناً ، وجميعها كانت تفصل بينها وبين كتابات الجاحظ مثل هذه المسافات البعيدة .

ب – مقال المناسبات :

وهو أيضاً بالشكل الذي تعرفه به صحف ومجلات اليوم ، لم تعرفه الكتابات الجاحظية ، الا قليلاً جداً .. وحتى في هذا القليل ، فإنه كان يقف على هامش مناسبة سياسية ، أو تتصل بالفرق الإسلامي عامة ، والمعتزلة خاصة . بينما تتعدد صور هذا النوع من أنواع المقالات وتتسع حتى لتغطي جميع المناسبات الموجودة في العالم كله ، ولعل ذلك يعود إلى سببين أساسيين ،أولهما : سبب ظرفي زماني ، حيث لم يعرف عصر الرجل ، مثل ذلك العدد الكبير من المناسبات التي نعرفها الآن ، والتي شاعت أيام الدويلات الإسلامي ثم أضاف لها ((العصر الفاطمي)) كثيراً فضلاً عن المناسبات ((العصرية))القائمة اليوم ،أو ((المواسم)) التي تتناولها كتابات الكاتبين ،مثل ((الربيع – الصيف- دخول المدارس – الأوكازيونات – الأعياد القومية – الأعياد الدينية - ... الخ)) وأمّا ثانيهما : فهو إن الصحافة مضطرة على سبيل التغطية الكاملة لمثيلات هذه المناسبات ، أن تتناولها بمختلف الأطر والأساليب التحريرية ... ومنها المقال ولم يكن الحال كذلك على عهد الجاحظ ، ولاكانت هذه اهتمامات أوعيتهم الصحيفة التي إنتشرت في عهدهم .. باستثناء الأعياد الدينية فقط التي كانت لها أطرها الروتينية المحدودة .

ج- المقال الاعلاني :

وبالمثل كان عهد الجاحظ ،وعهد هذه الأوعية الكتابية التسجيلية أو الصحفية ((جوازا)) المعروفة في عصره ،وكان موقفه وموقفهم من هذا النوع من أنواع المقالات التي تكتب بهدف الاعلان عن نشاط أو مؤسسة أوجهاز أو سلعة معينة ،أو من أجل تسويق إنتاج كل منها ،حيث لم تشارك هذه الأنشطة بالشكل الذي كان معروفاً على عهدهم أو عرفه العصر العباسي وقت حياة الجاحظ ،ومن ثم فإن هذا النوع يخرج عن مجال النشاط الكتابي للجاحظ .

وأوضح كذلك بالإضافة إلى هذا السبب الزمني ، إن "إنتشار هذه الاطر الفنية التحريرية الاعلانية ، سببه الرغبة في الإفادة من امكانيات وأساليب هذه الفنون والاطر في اجتذاب القارئ ، ورفع درجة قابليته للقراءة

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

، وإضفاء بعض ملامح الفكر المقالي على المادة الإعلانية ، كمحاولة لزيادة الإقبال عليها، فتحدث المادة أثرها في جمهور القراء ، والمستهلكين عن طريق اصطناع مثل هذه الأساليب"[٢٨].

أمّا عن النوع الثاني من أنواع هذه المقالات ..المقالات التي اقتربت منها رسائل الجاحظ اقتراباً معقولاً وطيباً .. فقد كان من أبرزها هذه كلها :

(أ) المقال الصحفي العام :

على الرغم من إن كتابات الجاحظ في مجموعها ، كانت تأتي ضمن إطار كتاب أو جزء من كتاب أو رسالة أو ماشابه ذلك وإن هذه كانت لها وحدتها الموضوعية كما يبدو أول وهلة ، وكما هو المفروض إن يكون ، استناداً إلى عنوان الكتاب ، أو عنوانات مصاحفه أو فصوله على الرغم من ذلك كله ، الا إن المتتبع لرسائل الجاحظ في كثير من الأحوال ، يجد إنها كانت ترتبط بمثيلات هذه الخصائص :

- التنوع داخل إطار أو حدود المادة الواحدة والخروج من موضوع إلى موضوع ، وكما يقول التعبير الصحفي للحديث من فكرة إلى فكرة .

-جعل الصور العديدة ، القريبة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة هي المجال الإطاري للمادة الجاحظية ، والدائرة التي تدور فيها الكتابات ، على الرغم من إرتباطها الظاهر. أو على الورق فقط ، بموضوع أساسى.

- التوالد الكبير للفكرة الواحدة ، وتفرعها إلى أكثر من فكرة جزئية ،قد تؤدي بدورها إلى أفكار عديدة أخرى قد تجد لها مجالاً داخل المجال الإطاري للمادة الجاحظية الواحدة .

- اختراق ذلك كله ، بالتعبير للمبدع عن الذات احيانا .

- تقديم استعراض لثقافة الجاحظ وقراءاته من هنا وهناك .

- تقديم بعض الصور القلمية المرسومة جيداً ضمن إطار المادة نفسها لبعض الشخصيات التي يعرفها أو يتحدث عنها موضوعة أو يذكره بها .

- المرور ببعض((المحطات)) السياسية أو المذهبية أو تلك التي تتصل بعدد من المشكلات القائمة والمحتدمة .

-اعطاء الامثلة والشواهد العديدة من تلك التي تسعفه بها قراءاته العديدة والمتنوعة ..

وليس شرطاً –بعد ذلك كله-إن تأتي هذه الموضوعات ضمن إطار مادة واحدة في جميع الأحوال ، بل الحق يقال إن كثرة منها كانت تجيء ضمن إطار موضوعات جاحظية عديدة ، لتذكرنا بإن كتاباته كانت" صورة عصره ، وإن العالم الذي عاشه الجاحظ ،كان هو ميدان قلمه الذي عبر عنه اصدق تعبير ، وانتقل خلال مدنه وقصوره ومساجده وحوانيته ودهاليزه وحضره وبدوه وصوره الوردية والبيضاء والرمادية ، بل والسوداء أيضاً "[٢٩] .

إن هذا النمط الكتابي الجاحظي –وبصرف النظر- عن المسميات والأطر التحريرية الجديدة ومتطلبات الصحافة الحديثة ، قد اقترب كثيراً من ذلك الذي اطلقنا عليه تعبير ((المقال الصحفي العام)) ، الذي يعد الآن من أبرز أنواع المقالات الصحفية ، وأكثرها نشراً وإنتشاراً وسيطرة على الصفحات ، يكتبه محررون وكتاب وأدباء وعلماء ، ولكنه لا يتوقف عند اهتمامات أحدهم فقط ، وإنما يضرب في

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

ميادين عديدة ، ويخرج من موضوع إلى آخر ، وهكذا حتى في اختلاطه أحياناً بغيره من أنواع المقالات ، حتى في بعض جوانب الجاذبية ، حتى في عمومية قارئه .. كل ذلك نجده يتمثل إلى حد غير قليل في أمثال هذا النمط الكتابي الجاحظي ...

(ب) المقال العرضي أو الإستعراضي : ((الإستطرادي)) :

ولا نقصد به هنا ((المقال العرضي)) بفتح العين والراء ، والذي يطلق عليه المقال أيضاً المقال ((النزالى)) بمعناه المعروف والمتجه إلى إمتشاق القلم ومنازلة الكاتب الخصم ، وإنما نقصد المقالات ((العرضية)) بتسكين الراء ، أي بمعنى الإستعراضية وهي مقالات صحفية شهيرة ، تعرفها الصحافة الأجنبية ، خاصة صحافة المجلة ، وفيها يقوم الكاتب بعمل ((عرض)) للقارىء أو ((استعراض)) يقدم خلاله عرضاً كبيراً لفكرة أو لأكثر من فكرة ، يتبعها بموضوع يتناول مشكلة أدبية أو ثقافية أو إجتماعية ، ثم يخرج منها إلى عرض مسهب لقضية من القضايا تشغل باله أو بال أحد القراء أو الأصدقاء أو المعارف وقد يمرح على جانب من الجوانب الأنسانية أو السياسية أو المذهبية أو تلك التي تتصل بالشعر أو النثر ، أو بشاعر أو بناثر أو بشخصية ما [٣٠] ، وهكذا وقد يركز ، ولكن في إسهاب وإستطراد على صورة واحدة من هذه الصور ، أو مشهد أو شخصية أو قضية أو فكرة واحدة ، بحيث تستغرق المجال كله بمادتها المسهبة وجوانب الإستطراد فيها تلك التي يكاد الجاحظ ((يقتلها بحثاً)) لكن الرباط الوحيد الذي يربط بينها جميعاً ، الموضوعات المختلفة أو الوضوع الواحد والذي تشد اليه أيضاً ، ويحرص الكاتب عليه هو رباط العرض ، فهو يعرض لهذه كلها ويتوقف عند حد العرض دون أن يتعداه إلى مجال آخر ، لكن من الطبيعي أن يتداخل العرض أحياناً مع غيره من ((القوالب الفنية)).. أو يتشابك مع بعضها لاسيما ((الوصف)) فهما –تقريباً- وجهان لعملة واحدة ، لكن مع بقاء الطابع العرضي الغالب والمسيطر ..

ومن الذي يستطيع أن يقول أو يزعم ، إن رسائل الجاحظ قد خلت من هذه التي تقف بالقرب من هذا النمط المقالي ؟ وبالقرب الشديد أيضاً؟ أو من ذا الذي يمكنه أن ينكر وجود هذه الخصائص في العديد من صور كتاباته ، تلك التي زخرت بها مؤلفاته العديدة ؟ .. بل لماذا لانقول إن أكثر مادة الجاحظ الكتابية هي من هذا النوع الإستعراضي الإستطرادي وإن نحن قمنا بـ ((فك))عدد من أجزائها لوجدناها بهذه المقالات شديدة النسب .

(جـ) المقال التحليلي :

والمتابع لكتابات الجاحظ ، خاصة في رسائله المتنوعة : "الصرحاء والهجناء"[٣١] ،"مفاخرة السودان والحمران"[٣٢] ، "أقسام فضول الصناعات "[٣٣] ، ا"لقحطانية"[٣٤] ، "العدنانية"[٣٥] ، "الزيدية والرافضة "[٣٦] ، "خلق القرآن"[٣٧] ، "الموعد والوعيد "[٣٨] ، "الحجة في تثبيت النبوة "[٣٩] ، "العثمانية"[٤٠] ، "فخر السودان على البيضان"[٤١] ، يجد إن بعضها الأول أن يمت إلى ((الدراسة الصحفية)) أو ((البحث الصحفي)) بصلة نسب قوية ، ويجد ايضاإن بعضها الثاني يمت إلى ((مقالات التخصص العام)) يمثل هذه الصلة ، وكذلك يجد –في النهاية- إن بعضها

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

الثالث ، لايقل صلةعن سابقيه ، ولكن بماذا ؟ بالمقال التحليلي نفسه ، أو المقالات التحليلية ذاتها .

وإذا كان النوع الأخير من المقالات هو ما يهمنا بالدرجة الأولى خلال هذه الفقرة ، فإننا نضيف إلى ذلك قولنا إن أبرز خصائص هذه النوعية من المقالات مايلي[٤٢] :

-حاجة هذا الموضوع التي يستشعرها الكاتب هنا إلى الإيضاح والتفسير من جانبه ، لصالح هذا الرأي العام أيضاً.

- إن الموضوع تكون له جذوره وامتداداته وإصوله كما تكون له تشعباته العديدة التي يصعب على القراء فهمها دون قيام أحد المتمرسين والفاهمين بشرحها والقاء أكثر من ضوء عليها ،وفي صيغة العارف بها وبتطوراتها وحقائقها ودقائقها أيضاً.

- إن الموضوع يحتاج من كاتبه إلى أكثر من اضافة أخرى بعضها يقدم فيه مادة مقارنة بماحدث أو وقع في مكان أو زمن آخر ، أو ماتناوله كاتب أو مؤلف آخر ،بما في ذلك من رؤية للواقع المكاني .

-وإنه يحتاج إلى هذه المقدرة التحليلية من كاتب خبير يلم بأفكاره كلها و يخرج منها بعدة شواهد وأمثلة تتصارع فيما بينها وتتشابك ، وتتوالد و ثم تقدم صوراومفاهيماً وتوقعات جديدة ، في صورة نتائج هامة ، أدت اليها المقدمات التحليلية السابقة في مجموعها ..

- دون أن يتجاهل خلال ذلك كله ، تقديم رأيه في ذلك الذي يتوصل اليه ، وإن يكون الخط التحليلي هو الهام والمسيطر من أول المقال حتى آخره .

الا يأخذ الجاحظ – كما رأينا - من هذه الجوانب بنصيب كبير ؟ باستثناء هذه المسميات الحديثة ، التي لم يكن عهده أو عصره يعرفانها ؟ .. لكن إذا كانت الشواهد الجاحظية نفسها هي خير الأدلة على صحة هذا الأقتراب الجاحظي من المقالات التحليلية ، فلايمنعنا إلا أن نحيل القارئ على مثيلات هذه الرسائل السابقة خاصة ذات الطابع السياسي والإجتماعي والآن نقدم جزءاً من واحدة من هذه المقالات .

** جزء من المقال العرضي – استعراضي- في بعض المسائل اللغوية ، ومحاولات أصحاب اللثغات إخفاء عيوبهم واصطناع كلمات أخرى ،لاتظهر هذه اللثغة :

"ولما علم واصل بن عطاء إنه ألثغ فاحش اللثغ ، وإن مخرج ذلك منه شنيع وإنه اذ كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة وإنه يريد الإحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وإنه لابد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وإن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وأحكام الصنعة ... وعلم واصل إنه ليس معاًما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، لنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى (عليه السلام) من التوفيق والتسايد،مع لباس التقوى وطابع النبوة ، ومع المحنة والإتساع في المعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبي ﷺ : لو لم تكن فيه أيات مبين كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ،رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقة ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

والراحة من هجنته ، حتى إنتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ... الخ"[٤٣].

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ،فإذا حمل على نفسه وقوم لسانه أخرج الراء ، وقد ذكره في ذلك أبو الطروق الضبي فقال :

عليم بإبدال الحروف وقام

لكل خطيب يغلب الحق باطله

ثم يعود إلى حديث واصل قائلا:" وكان إذا أراد أن يذكر البر قال : القمح والحنطة ، والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية ، هذا وهويعلم إن لغة من قال بر ، افصح من لغة من قال قمح أو حنطة .. وقال عمر بن الخطاب أترون إني لا أعرف رقيق العيش ؟ لباب البر بصغار المعز – وسمع الحسن رجلاً يعيب الفالوذق فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، ماعاب هذا مسلم – وقالت عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا – وأهل الأمصار إنما يتكلون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الإختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ... الخ "[٤٤].

** والآن يأتي دور حديثنا عن ((النوعية الثالثة)) من هذه المقالات وهي التي قلنا إن كتابات الجاحظ لاسيمل رسائله ، قد اقتربت منها بشدة ، وإلى أدنى حد ممكن ؛ لتمثل بعض هذه الكتابات الجاحظية ، الطلائع المتقدمة جداً لهذه المسميات الحديثة ، أو الأطر والأشكال المقالية التي تعرفها صحف اليوم ومجلاته ، وعلى اختلاف أنواعها ، كما يكاد البعض الآخر من هذه الكتابات الجاحظية ، إن ينطبق على الحالي من نوعيته تمام الإنطباق – كتعبير رجال المنطق_ ولما كانت أكثر الشواهد تؤكد إن الجاحظ لم يسبقه إلى هذه الكتابات كاتب آخر على عهده ، أو في عهد قبل ذلك العهد ، بنفس القدر من الكم والكيف معاً ، أو بنفس الدرجة من الوضوح والاكتمال ، التي تبدو في كتابات الالجاحظ .. فإنه لايسعنا الا إن نشيد بهذه الاسبقية له أيضاً ، على إن هذه النوعية الثالثة ، إنما تتمثل في :

(أ) المقال النقدي : ((الصحفي))

والحق إن من يقرأ التراث الجاحظي ، ليتوقف كثيراًعند أكثر من جانب من جوانبه ، لاسيما رسائله وكتبه .. حيث يجد إنها بدورها تمثل سلاسل منتظمة ، أو غير منتظمة من مقالات نقدية تناولت كافة هذا النتاج الأدبي الموجود في عصره والتي تميزت – ومما يقربها هنا - من مقالات النقدالصحفي وبشدة وبهذه الامور :

- إنها جمعت بين المعايير العديدة التي كان يطبقها النقاد من الطوائف الاربع السابقة .

_إنهاعكست ثقافة لغوية وأدبية عامة وليست متخصصة فقط،كتخصص الناقداللغوي مثلا.

- إنها عكست حساً صحفياً كبيراً ، في اختيار مادة النقد وموضوعات هذه التناولات من المعين الأدبي ، قديمة ومعاصرة، وحيث كانت في معظمها من الموضوعات النقدية الساخنة ، والتي تحد قبولاً جماهيراً ، والتي لها قصة مع غيره من النقاد أو تلك الجذابة المسوقة .

- إنه لم يضع هذه المادة في اشكالها الكلاسيكية التي كان يضعها فيها غيره وإنما غلب عليها الطابع الجاحظي في الاسترسال وحسن العرض ، والإنتقال من فكرة إلى

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

فكرة ومن موضوع إلى موضوع ، والتجديد في المادة من إن الآخر بما يجذب القارىء ويمسك به حتى النهاية .

- إن ((مقالاته)) النقدية كانت تشهد كثيراً من التنوع في الموضوعات والطرق والأساليب النقدية ، بما لم يحدث عند ((الناقد))المتخصص تماماً، أو عالم النقد - إذا صح التعبير- ،وبما يؤكد جانب نقده الصحفي.

- إن أغلب مقالاته النقدية كانت تتجه الاتجاه التطبيقي العام ، الذي يعني بالحكم على المادة نفسها ومالها وما عليها ، على نحو ما يفعل نقاد الصحف الآن عند ظهور الاصدارات الجديدة .

- إنه لم يكن يهتم كثيراً بالجزئيات الصغيرة ، فلا يحكم لكاتب أو عليه من خلال فقرة أو عبارة ، أو عدة سطور ، ولايحكم لشاعر من خلال بيت واحد أو قصيدة واحدة على نحو ما كان يفعل النقاد في عصره ، وإنما كان ينظر إلى العمل كله ، أو إلى الأعمال في مجموعها ، وصحيح إن نقده للعبارات والفقرات والأبيات والقصائد وارد ، لكنه لم يكن الاساس ، وكان يعرض له على طريقة ((الشيء بالشيء يذكر)).

ونقدم هنا أجزاء من هذه المقالات النقدية

((الصحيفة)) مما جمعناه من كتبه ورسائله :

فهو يقول في نقد لغة الأعراب : "إن الأعراب يفسد نوارد المولدين ، كما إن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لإن سامع الكلام إنما اعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فادخلت على هذا لامر – الذي إنما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه – حروف الاعراب والتحقيق والتنقيل ، وحولته إلى صور ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، إنقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته"[٤٥]

ويقول كذلك بشأن الترجمة والمترجمين : "... فمتى كان رحمة الله تعإلى ، ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قره – ابن قره- وابن قهر وابن الباهلى ، وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون ؟ ولابد للترجمان من إن يكون بيانه في نفس الترجمة في نفس وزن علمه قي نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً تكلم بلسانين علمنا إنه قد ادخل الضيم عليهما ، وكيف تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه لذا انفرد بالواجدة ، وإنماله قوة واحدة ، فإن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات...الخ"[٤٦]

(ب) مقال التخصص العام

(ت) ((مقال مجلات التخصص العام)) :

هو النوع الثاني من هذه الكتابات الجاحظية التي تمثل أقرب رسائله إلى بعض أنواع المقالات الصحفية الحديثة ، تلك التي تكون من نفس النمط ، ومن نفس المعين ، وتأخذ نفس الطابع أيضاً . ويعود الاصل في اطلاق تعبير((التخصص العام)) عليها ، وكذا تعبير((مقالات مجلات التخصيص العام)) لعدة اسباب في مقدمتها[٤٧]:

– إنها متخصصة من حيث المعلومة ، أو المفروض أن تكون كذلك ولكنها ليست متخصصة من حيث القارىء.

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

- إنها لاترتفع بمستواها إلى درجة التخصص العلمي الدقيق الذي نشهده في الكتب العلمية ، الجامعية مثلاً أو في مجلات هذا التخصص الدقيق.

_إن افضل مكان لنشرها هو ((مجلات التخصص العام)) أي تللك التي تقدم بعض جوانب التخصص مما يستطيع متابعته القارىء العام المثقف أو نصف أو ربع المثقف أيضاً ، ثم المجالات العامة ، والصحف الاسبوعية ، خاصة على صفحاتها وأركانها الخاصة .

-إن كاتبها يوازن بين أشياء عديدة ، من بينها تقديم المعلومات العلمية غير المتعمقة تماماً، والتي لا تهم المتخصصين وحدهم ، وحتى هذه فإنه يجيد اختيارها من بين أكداس ما يتجمع عنه ، ويقدمها في قالب مشوق ، وفي لغة واضحة ، وأسلوب جذاب .

- وهو يدعمها بالقصص والتشبيهات ، ويوالي الربط بينها وبين جوانب تهم الناس في عهده ، أو تهم قراء مجلته .

أي إنه يكون أقرب إلى ذلك النمط الاسلوبي المقالي المسمى ((العلمي المقارب)) فهو علمي نعم ، لكنه يوضع في قالب أدبي ، ويعبر عنه بأسلوب أدبي ..لكنه – مقال التخصص العام – ليس أدبياً تماماً من حيث توجهاته الصحفية ، ولغته الأدبية الصحفية معاً من حيث اهتماماته كذالك .

وإذا كانت هذه المقدمات كلها مما يتصل بعدد من خصائص هذه النوعية من المقالات من جانب ، فإنها –من جانب آخر- مما يعتبر علماً على هذه النوعية من المقالات الجاحظية التي عرفها الرجل ، وأجاد كتابتها وزخرت بها رسائله، ولكنه ليس وحده وإنما كانت هناك بعض الكتب الأخرى المماثلة أو في تعبير آخر – ومرد ذلك إلى عبقرية الجاحظ نفسها-إن مقالات التخصص العام ضربت في أكثر من تخصص من بينها التاريخ والجغرافية والسياسية والاقتصاد والاجتماع والاخلاق ، وحتى الطبيعيات والرياضيات أيضاً .. وما أكثر مادة هذه الكتب والرسائل الا مجموعات من مقالات من هذا النوع الاخير أكثر منها مقالات علمية كاملة .

- ((كتاب الملوك والامم السالفة والباقية)) تاريخ.

- ((كتاب الاستطاعة وخلق الافعال – الاعتزال وفضله))في الفلسفة والاعتزال.

- ((كتاب خلق القرآن- كتاب آي القرآن –كتاب الرد على اليهود)) في الدين الاسلامي.

- ((كتاب مراتب التجارات – كتاب الزرع والنخيل والزيتون والاعتاب)) في الزراعة والاقتصاد .

- ((كتاب المعادن)) في الكيمياء... إلى آخر هذه القائمة ، وغيرها من الكتب ، فضلاً عن كون أكثرها ذات موضوعات متنوعة شتى .. لكننا نقصد هنا – بالدرجة الأولى – تلك التي زخرت بهذه النوعية من المقالات .. التي يطلق الآن على بعضها أحياناً ((المقالات الموضوعية))

يؤكد ذلك كله ، وكما اشرنا إلى بعضه من قبل :

*إن الجاحظ لم يكن عالماً كاملاً، في علم بعينه من هذه العلوم التي تناولتها كتاباته على أي شكل من اشكالها .

* إنه كان يعرف من هم قراء مادته ؟ إنهم ليسوا طلاب العلم وحدهم ، وإنما العامة والخاصة معاً..

*ويمكن إن نضيف إلى ذلك كله :

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

- حسن إنتقاء الجاحظ لمادته التي تهم الجميع من بين عشرات المواد العلمية المطروحة أمامه .

- المزج في احياناٍ كثيرة بين هذه المادة وبعض المواد الآخرى بغية التخفيف من حدتها والترويح عن القارىء واعطائه فرصة التقاط أنفاسه ..حتى الملح والطرائف استخدامها أيضاً ، وكان ذلك معنى قول من تناولوه ، وتكرار ذلك إنه كان ((يمزج الجد بالهزل)).. حتى في كتاباته السياسية ، والعلمية وكان يفعل ذلك .

إن الجاحظ هو كاتب "مهتم" وليس عالماً ولامؤرخاً ولاجغرافياً.. وهكذا تقول كتاباته ، لاأقول المتخصصة ،ولكن من ذوات التخصص العام ، الذي تمثل هذه المقالات ، أهم أنواعه ، وربما كان باستطاعته إن يكتب كتابة متخصصة دقيقة التخصص ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ولا أمكانية قيامه بها ، أو استطاعتها .. لكن كان يعرف كيف يختار؟ وماذا يقول ؟ وهذه أخرى تؤيد دعوانا على قيام جانبه الصحفي ، إلى جانب شخصيته الأدبية .. والا فلماذا لم يكتب المقال المتخصص الدقيق ، ومادام يستطيعه ؟ لماذا لم يتجه إلى علم واحد فقط ؟ لماذا لم يصبح عالماً فقط ؟ أو فيلسوفاً فقط ؟ أو جغرافياً دون غيره من الرجال ؟ أو من رجال السياسة أو الاقتصاد أو الزراعة أو الكيمياء المعدودين ؟ وقد عرف كل ذلك ، وتناوله ، وكان باستطاعته في أحد فروعه ؟

قد يقول قائل – رداً على ذلك – إنه أحد هؤلاء الموسوعيين المعروفين والذين يجمعون بين معارف عديدة وعلوم متنوعة .

وأقول أولاً – ليس إلى هذا الحد من الكثرة والتعدد.

وأقول ثانياً – وماذا عن حسن أختياره وتوجهاته واهتماماته ولغته ، وكلها تؤكد جانب صحافته .

إن العودة إلى الينابيع الجاحظية ، نغترف منها بعضاً مما يذكرنا بهذه النوعية هي عودة واجبة :

جزء من رسائله يقدم بعض مادته التي تقترب كثيراً من مقال ((التخصص العام)) أو((مقالات المجلات)) ذات التخصص العام أيضاً .قوله في رسالته ((مدح الكتب والحث على جمعها))[٤٨]: "...والكتاب وعاءٌ مليء علماً، وظرفٌ حُشي ظُرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجدّاً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وعجبت من غرائب فرائده، وإن شئت شجتك مواعظه، ومن لك بواعظٍ، وببارد حارومن لك بطبيبٍ أعرابي، وبروميٍّ هنديّ، وبفارسٍ يونانيّ...**"

ومن ذلك كقوله في حديثه عن الحب في (رسالة القيان)[٤٩]: "... **ثم قد يجتمع الحبّ والهوى ولا يسمّيان عشقاً فيكون ذلك في الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب، فلم نر أحداً منهم يسقم بدنه ولا تتلف روحه من حب بلده ولا ولده، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق. وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق. فعلم أنه أضيف إلى الحب والهوى المشاكلة، أعني مشاكلة الطبيعة، أي حب الرجال النساء، وحب النساء الرجال، المركب في جميع الفحول والإناث من الحيوان، صار ذلك عشقاً صحيحاً. وإن كان ذلك عشقاً إذا فارقت الشهوة. ثم لم نره ليكون مستحكماً عند أول لقياه**

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

حتى يعقد ذلك الألف، وتغرسه المواظبة في القلب، فينبت كما تنبت الحبّة في الأرض حتى تستحكم وتشتد وتثمر، وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشديد، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل، فإذا اشتمل على هذا العلل صار عشقاً تاماً..." .

وقوله في رسالته (فصل ما بين العداوة والحسد)[٥٠]:

"... وحسد الجاهل أهون شوكة، وأذلّ محناً من حسد العارف الفطن لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه، من قبل استتمام قراءته ورقة واحدة، ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفّه حتى يبلغ منه إلى أشدّه وأغلظه من قبل أن يقف على فصوله وحدوده. وليس ثلبه مفسّراً مفصّلاً، ولكنه يجمل ذلك ويقول: هذا خطأ من أوله إلى آخره، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه، ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطعناً وإطناباً في الحمل على واضع الكتاب كان ذلك أقرب إلى القبول منه. وهو لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخفّ به، وبكّته بالجهل، وعلم أنّه قد حكم من غير استبراء، وقضى بغير رويّة، فسقط عنه وبطل، والحاسد العارف الذي فيه تقية ومعه مسكة وبه طعم أو حياة إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في إسقاطه، تصفّح أوراقه، وقف على حدوده ومفاصله وردد فيه بصره، وراجع فكره، وأظهر عند السيد الذي هو بحضرته وجلسائه، ومن التثبّت والتأنّي حبالةً يقتنص بها قلوبهم، وسبباً يسترعي به ألبابهم، وسُلَّماً يرتقي به إلى مراده منهم، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخُدَع، فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له. فربّما استرعى بهذه المخاتل والخدع قلب السيّد الحازم".

(ج) المقال الفكاهي:

وإذا كانت الكتابات الجاحظية النقدية وذات التخصص العام من تلك التي اقتربت بشدة من مادة المقالات الحديثة على النحو الذي أشرنا اليه .. فان هذه النوعية مجال الحديث خلال هذه الفقرة هي أكثر انواع الكتابات الجاحظية اقتراباً من صورها وأنماطها وأشكالها الحالية ، التي تعرفها الصحف والمجلات اليوم .

بل إننا – في واقع الامر_لنظلم هذه الكتابات الجاحظية الفكاهية والكاريكاتيرية كثيراً، أن نحن اقتصرنا على هذا الوصف بالاقتراب الشديد فقط أو أقربها اليها دون اضافات أخرى ، لأن الواقع التاريخي والأدبي والصحفي نفسه يقول أن هذه الكتابات الجاحظية إنما تمثل أصدق تمثيل :

دور الطلائع بالنسبة لهذه المقالات الأدبية الصحفية معاً.

- دور الريادة بالنسبة لفن الكاريكاتير الكتابي شكلاً ومضموناً ، أي أنها الأقرب حتى من هذه النوعية السابقة وبكثير " وقد ترك لنا ((التربيع والتدوير))[٥١]، وهي أعظم رسالة أدبية كتبت في هذا الفن ، ولعلها أعظم رسالة إلى اليوم ، فنحن لانعلم لها نظيراً فيما كتبه أهل هذا الفن – سواء في الادب أو في الصحافة- حتى اليوم .. وموضوع الرسالة أحمد بن عبد الوهاب[٥٢] ، وإلى مثل هذه الرسالة أيضاً ، وصلتها بهذا الفن ، أشار الكاتب ((توفيق الحكيم)) أكثر من مرة ، في كتبه ومقالاته ، وكان من بينها –مثلاً- هذه الكلمات :

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

"ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بنثره مايرسمه هذا الفن المعاصر الذي نسميه الكاريكاتير "[٥٣].

وبعد أن يقدم لنا سطوراً من هذه الرسالة – التربيع والتدوير – يضيف قائلاً : ((..وعلى هذا النحو يمضي الجاحظ يصور لنا ذلك ((الرجل))[*] تصويراً لايريد به هجاءه بقدر ما يريد اضحاكنا منه ، وهذا هو روح فن الكاريكاتير))[٥٤]. فأنه يفعل كالرسام الكاريكاتيري ..أي لايكتفي بأظهار العيوب ووضع يد القراء عليها ، وإنما يقوم بتوضيحها وابرزاها وتجسيمها والمبالغة فيها والتهويل من شأنها فضلاً عن البساطة والسهولة والظرف وخفة الروح والظل ، جميعها من لزوميات أكثر المجلات العامة . ومن خصائص أساليب كتاباتها ، ومن صور طبائعها البارزة ، أو التي ينبغي أن تبرز على صفحاتها وبين سطورها- أي "أن الكاريكاتير هنا ليس رسماً بقلم الفنان أو ريشته وألوانه ، وإنماهو مقال تعبيري ساخر متهكم "[٥٥] ، وما أحراه بذلك أن يكون مادة هامة من مواد المجلات عامة والسياسية والأدبية والفكاهية خاصة – نعود فنقول أننا لانعرف كاتباً تميز بها ، أصبحت كتاباته هي المقدمة في هذه الأنواع ، وارتبطت به وارتبط بها مثل الكاتب الباحث المحقق الصحفي أبي عثمان الجاحظ.

ولعل من خلال كل ماتقدم يتضح لنا بما لايدع مجالاً للشك ، الدور الرائد للكتابات الجاحظية - بالنسبة لهذه النوعية الأخيرة من المقالات ، ومن ثم فلا مجال للقول بأن هذه الكتابات تعتبر من قريبات الشبه بمادة اليوم ، أو أنها تعتبر من مقدماتها ، فهذا القول ، أو ذلك لايمثلان حقيقة موقع المقال الكاريكاتيري عند أبي عثمان ، ولا أهميته التاريخية الأدبية والصحفية معاً ، بل الصحيح أن يقال أنه ((مبتكره)) و أنه ((رائده)) وأنه ينطبق على مثيلاته الآن تمام الانطباق ، بل لعل كتابات الجاحظ في هذا المجال ،تكون أفضل بكثير ، من العديد من تلك الكتابات الكاريكاتورية التي نطالعها اليوم ، وذلك من زاوية الحس الأدبي والصحفي والفكاهي معاً و فضلاً عن خصائص عديدة أخرى أرتبطت بها هذه المقالات ، وكانت علماً على كتابات هذا الرائد .. وحيث يأتي الآن دور التوقف عندها ، عند خصائص المقال الكاركاتوري الجاحظي ، وذلك قبل أن ننتقل لتقديم أحدى صوره ، أو أجزاء من هذه الكتابات نفسها .

خصائص المقال الفكاهي عند الجاحظ :

نعم ارتبطت مقالات الجاحظ الفكاهي ، بعدة خصائص مميزة وملامح تعرف بها ، قبل أن نتحدث عنها ، نقول ، إنطلاقاً مما سبق ، واستكمالاً له أيضاً أن هذه الخصائص نفسها ، ولكونها ترتبط بالمقالات الرائدة من هذه النوعية فأنها تمثل – حتى الان – أبرز الاسس والمبادىء التي ينبغي أن يراعيها كاتب مثل هذه المقالة ، وكذا ينبغي أن تشمله المقالة نفسها من مضمون .. أن أهم هذه الخصائص هي :

حسن اختيار الاشخاص والموضوعات والصور .

براعة الوصف .

ثراء المضمون وتنوعه.

واقعية اللغة وجاذبيتها .

- أن الضحك ولو أنه ركن أساس في المقال ، ألا أنه لم يكن الهدف الوحيد له ، وإنما كانت تتشابك

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

معه أحيان كثيرة ، وتتقدمه في أحيان أخرى عدة أهداف رأى الرجل بحصافته وخبرته وحسه ، أنها يمكن تتحقق بهذا الاسلوب ، فهو يضحكنا من الاشخاص حتى لايكثر أمثالهم ، ويضحكنا من الصور والمشاهد حتى تبرز ويضخم جانبها السلبي فيرعوي أصحابها ، ويوجه سخريته الى النقائض والعيوب والمثالب ، فالضحك عنده أسلوب وسيلة فهو نوع من النقد الاجتماعي لا الادبي هنا ، وكثيراً ما اتجه الى هذا المعنى ، وفي ذلك يقول أحد الذين اقتربوا من هذا الجانب أكثر مما أقتربنا ، فلم تكن فكاهته "عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون بل كثيراً ما كانت تأتي مصحوبة بالتلميح الهادف أو التعريض اللاذع ، مما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية ، والتي تسمو – في جوهرها –على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص"[٥٦] .

دقة التوجه لما يتناول وبراعة تصويره مجسماً فهو كرسام الكاريكاتير الماهر كان يحسن التقاط ذلك الجانب من صورة الشخص ، أوتلك الزاوية في الموضوع أو هذا الركن من أركان المشكلة أو القضية ، قبل غيرها من الجوانب أو الزاويا أو الاركان الاخرى ، ثم يتوجه اليها بقلمه ، ليصورها في براعة من حيث التجسيم والتكبير والمغالاة ، حتى وأن كانت هذه كلها تتصل بهيأة الرجل ، أوتصرف كاتب ، أو سلوك أحد العمال ثم أن التصوير هنا يحسن اختيارها ما يشبه به هذا العضو ، أوتلك الهيئة ، حتى يبعث على الضحك ، والضحك الكثير أيضا، وأليك قوله في رسالة (التربيع والتدوير)[٥٧]:" **جعلت فداك كما لم تكن فكنت، فكذا لا تكون بعد أن كنت، وكما زدت، في الدهر الطويل، فكذا تنقص في الدهر الطويل، إذ كل طويل فهو قصير، وكل متناه فهو قليل، فإياك أن تظنّ أنك قديم فتكفر، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك...الى أن يصل " فأما سواد الناظر، وحسن المحاجر، وهدب الأشفار، ورقة حواشي الأجفان، فعلى أصل عنصرك، ومجاري أعراقك، وأما إدراكك الشخص البعيد، وقراءتك الكتاب الدقيق، ونقش الخاتم قبل الطبع، وفهم المشكل قبل التأمل، ومع وهن الكبر، وتقادم الميلاد، ومع تخوّن الأيام، وتنقّص الأزمان، فمن توتياء الهند وترك الجماع، ومن الحمية الشديدة، وطول استقبال الخضرة، فأنت*يا عم حين تصلح ما أفسد الدهر، وتسترجع ما أخذته الأيام لكما قال**

الشاعر:

عَجوزٌ تُرَجّي! أنْ تَكونَ فَتِيَّةً

وقدْ لَحِبَالجنبانِ واحدَوْدَبَ الظّهْرُ**

تَدُسُّ إلى العطّارِ ميرةَ أهلِها

وهَلْ يُصْلِحُ العطّارُ ما أفْسَدَ الدّهْرُ"

ويقول في رسالة له كتبها على شكل مقال واصفا بها ((تمام بن جعفر)) الذي كان من المعدمين في عصره ، وقد تتبع الجاحظ أسلوب المحاورة الفكاهية إذ يقول :

"كان تمام بن جعفر بخيلاً على الطعام مفرط البخل. وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ويطالبه بكل طائلة وحتى ربما استخرج عليه أنه لابن جلاد الدم. وكان إن قال نديم له: ما في الأرض أحد أمشى مني ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر مني! قال: وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة وهل يحمل الرجل إلا البطن لا حمد الله من يحمدك! فإن قال: لا والله إن أقدر أن أمشي لأني أضعف الخلق عنه

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

وإني لأنهر من مشى ثلاثين خطوة! قال: وكيف تمشي وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالاً! وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل وأي بطين بقدر على الحركة وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فإن شكا ضرسه وقال: ما نمت البارحة مع وجعه وضربانه قال: عجبت كيف اشتكيت واحداً وكيف لم تشتك الجميع! وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكة! وأي ضرس يقوى على الدرس والطحن! والله إن الأرحاء السورية لتكل وإن الميجان الغليظ ليتعبه الدق! ولقد استبطأت لك هذه العلة! ارفق فإن الرفق يمن ولا تخرق بنفسك فإن الخرق شؤم! وإن قال: لا والله إن اشتكيت ضرساً لي قط ولا تجلجل لي سن عن موضعه منذ عرفت نفسي قال: يا مجنون! لأن كثرة المضغ تشد العمور وتقوي الأسنان وتدبغ اللثة وتغدو أصولها. وإعفاء الأضراس من المضغ يريحها. وإنما الفم جزء من الإنسان. وكما الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوى وإذا طال سكونه تفتخ واسترخى فكذلك الأضراس. ولكن رفقاً! فإن الإتعاب ينقص القوة. ولكل شيء مقدار ونهاية. فهذا ضرسك لا تشتكيه بطنك أيضاً لا تشتكيه فإن قال: والله إن أروى من الماء. وما أظن أن في الدنيا أحداً أشرب مني للماء قال: لابد للتراب من ماء ولابد للطين من ماء يبله ويرو. أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمتك! تدري ما قد تصنع أنت والله تلعب! أنت لست ترى نفسك! فسل عنك من يصدقك حتى تعلم أن ماء، فإن قال: ما شربت اليوم ماء البتة وما شربت أمس بمقدار نصف رطل وما في الأرض إنسان أقل شرباً مني للماء قال: لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً! ولأنك تكنز في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلاً! والعجب لا تتخم لأن من لا يشرب الماء على الخوان لا يدري مقدار ما أكل ومن جاوز مقدار الكفاية كان حرياً بالتخمة. فإن قال: ما أنام الليل كله وقد أهلكني الأرق قال: وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة أن تنام والله لو لم يكن إلا العطش الذي ينبه الناس لما نمت. ومن شرب كثيراً بال كثيراً. ومن كان الليل كله بين شرب وبول كيف يأخذه النوم فإن قال: ما هو إلا أن أضع رأسي فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح قال: ذلك لأن الطعام يسكن ويخدر ويحير ويبل الدماغ ويبل العروق ويسترخي عليه جميع البدن. ولو كان في الحق لكان ينبغي أن تنام الليل والنهار))[٥٨].

د- المقال الافتتاحي أو"الافتتاحية" :

لو رحلنا نبحث عن المقال الافتتاحي في رسائل الجاحظ ، فأننا دون شك سوف نجد أنه يتجاذبنا شعوران ، أو يأخذ بنا أحساسان ، يقومان على ملاحظة هامة ، تلك هي أنه إذا كنا نقصد المقال الافتتاحي الحديث بالصورة التي تعرفها الصحف والمجلات اليوم ، وبجميع خصائصه المرتبطة به أو أكثرها –على الأقل- فأن مطلبنا يكون عسيراً بعض الشيء ، وذلك لاختلاف الظروف والأحوال والطبائع ، ولكن إذا كنا نريد هذه ((الفواتح)) أو((المداخل)) التي تشبه مقدمات الكتب أو الرسائل فسوف نجد الكثير منها مما يزجر به التراث الإبداعي الكتابي الجاحظي .. ومن هنا نقول

أ - إذا كنا نقصد بالمقال الإفتتاحي ، وكما نعرف : "المقال الذي يحمل رأي الصحيفة أو المجلة وموقفها

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

من القضايا والمشكلات والإتجاهات الهامة داخلية أو خارجية"[٥٩] ، أو أنه " المادة التحريرية الهامة التي تنشر يومياً أو أسبوعياً محددة موقف الصحيفة أو المجلة من القضايا الهامة والمشكلات والمواقف والأفكار التي تتصل بمجتمع ما أو المجتمع الانساني والتي تنتشر تحت عنوان ثابت وغفلاً من التوقيع باسم كاتبها وفي مكان بارز وثابت في أكثر الأحول "[٦٠] ، و" أنه لايوقع باسم محرره لأنه لسان حال الصحيفة "[٦١] ، أوكنا نقصد هذا الذي تطلع به علينا الصحف والمجلات مراعية في تحرير ونشره خصائص عديدة من بينها :

- النشر اليومي أو الأسبوعي الدائم تحت عنوان لافتى ثابت ودال .
- تعدد الكتاب وتنوعهم .
- الارتباط الكامل بسياسة وسيلة النشر وما يتصل بذلك من التعبير عن رأي الصحيفة ، ووجهة نظرها ، وما أسفر عنه ذلك من إتجاهات عديدة واجراءات مختلفة .
- عدم التوقيع باسم المحرر ، بل الصحيفة ، كوسيلة إتصال .
- الجدة الزمنية الكاملة ، والارتباط بمادة حديثة ساخنة وملتهبة .
- المكان والحجم المحدد تقريباً وفي أغلب الاحوال .
- التوفيق بين سياسة الصحيفة واهتمام القراء وصالح الوطن والانسانية .

إذا كنا نقصد هذه النوعية ، فأننا نقول أن رسائل الجاحظ لم تعرفها وليس لنا إدعاء ذلك ، أو الزعم بهذه المعرفة ، وأوضح أن أسباب هذه الحالة تتصل بالطابع الصحفي الحديث والكامل ، والذي أسفر عن وجود هذه النوعية من المقالات لاسيما هذه الأسباب ، تعقد الحياة وتشابك المشكلات والتوتر السياسي القائم وحاجة القراء الى الشرح والتفسير والمساعدة على إتخاذ المواقف وإيجاد رأي عام في مواجهة المشكلات داخلية وخارجية وانتظار رأي الصحيفة المعاون للقارىء في كل ذلك ... الخ .

أن الجاحظ لم يكن يكتب في صحيفة يومية أو أسبوعية ، ليعبر عنها ، ولم تكن الحياة بكل هذا التعقيد والتشابك والتوتر القائم وصرعات الحدود والحروب الداخلية والآزمات الاقتصادية والسياسية ، ولم يكن هناك القارىء الفزع الذي ينشد المعرفة الكاملة لما يدور حوله ، أو ينشد الخلاص إلى غير ذلك كله ، فضلاً عن الاتجاهات الصحفية الجديدة التي لم يعرفها الجاحظ ولاعصره .. ومن ثم لم يعرفا ما يرتبط بها من اجراءات وتنظيمات تهدف في النهاية الى أن تصل هذه المادة قبل غيرها الى القارىء في سهولة ويسر وأن تقع تحت بصره دائماً ، حتى تقوم بدورها ، وتحقق الهدف من وجودها ..

ب- وأما إذا تجاوزنا عن ذلك كله – خاصة الإتجاهات والمطالب والأساليب العصرية – ونظرنا إلى هذه المقالة نفس نظرتنا إلى مقدمات الكتب وفواتحها ، بل ونظرتنا إلى بعض أنواع هذه المقالات نفسها لاسيما ((المقال الافتتاحي المهنى)) وبالتركيز الشديد على بعض أنواع ((مقالات المجلة الافتتاحية)) لوجدنا أننا نقترب أكثر من خطوة واحدة من النتاج الجاحظي في مثل هذه المجالات ..ولكن كيف ؟إن أكثر ما كتبه الجاحظ لاسيما رسائله ، رأيناه يقدم له ، أويفتتحه بعدة

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

سطور اختلفت أطوالها من مادة لأخرى ، لكنها في أحوال غير قليلة أيضاً كانت ((في مجموعها))

- ذات صلة وثيقة وأساسية بمضمون المادة التي تفتتح بها .
- تقدم بعض مايتصل من مصادر أو أشخاص .
- تلفت النظر إلى أهميتها . -
- تتحدث عن بعض الكتابات السابقة في نفس الوضوع له أو لغيره .
- وقد تحيل القارىء إلى هذه الكتابات .
- وقد تتحدث عن بعض الجهد الذي بذله في الحصول عليها لاسيما أن كانت تتصل بانتقاله إلى أماكن أخرى.
- أو تنبه الى بعض المثالب أو الثغرات وتقدم بعض المحاذير .
- وقد تتضمن ذلك الإهداء إلى شخص ما و يتصل به .
- وربما الاعتذار عن أي تقصير يبدو خلال سطورها ..
- إلى غير ذلك كله ، من أفكار وقضايا ، نعود فنقول بشأنها إنها – بصرف النظر عن العنوانات خاصة الاشارية المفتاحية والثابتة ، وعن التوقيع ، وعن تتابع الصدور ، ومايتصل بعد ذلك بالتعبير عن سياسة المجلة او الصحيفة الاسبوعية نقول أنها تقترب أكثر من خطوة من ذلك النوع من أنواع المقالات الإفتتاحية التي تعرفها المجلات أولاً ، والصحف الأسبوعية ثانياً ثم اليومية في أحوال قليلة جداً ، والتي تركز على أحدى هذه الأفكار أو الموضوعات . تجربة مثيرة لمحور – مشكلة مادية أو فنية واجهت صدور العدد – موضوع يتصل بصدور هذا العدد – قصة حصول محرر على صحفي منشور بنفس العدد –خطاب هام من القارىء – خطاب هام من المحرر إلى القارىء بشأن مادة ما ، أوتطوير ما أو ماشابه ذلك ... الخ .

وكان من بين هذه المقدمات والفواتح الجاحظية ، التي تقترب من هذه المقالات الافتتاحية للمجلات والصحف الأسبوعية ، خاصة دوريات التخصص العام ، ممايلي :

" ولعل هذا المقالة التي نبتدىء فيها يذكر "مالنا في الحشرات والهمج[٦٢] ....الخ ، ثم يتمه بجملة القول في "الظباء والذئاب "، فأنهما بابان يقصران عن الطول ويزيدان عن القصار ...

وقد بقي من الأبواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة ، التي قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ، وهو القول في رسالته "طبقات المغنيين "[٦٣] ، ورسالته" في النساء "[٦٤] ، ورسالته "خلق القرآن "[٦٥] ، في "البقر والقول في الحمير"[٦٦] ، والقول في" كبار السباع واشرافها ورؤسائها وذوي النباهة منها كالأسد والنمر"[٦٧] – وسنذكر تسالم المتسالمة منها ، وتعادي المتعادية منها – وقد شاهدنا غير هذه الأجناس يكون تعاديها من قبل هذه الأمور التي ذكرناها ، وليس فيها بين هذه السباع بأعيانها تفاوت في الشدة ، فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله والفهد لايطمع ولايأكله ، فوجدنا التكافؤ القوة والآلة من اسباب التفاسد .. وسنذكر علة التسالم وعلة التعادي وبعض مايدخل في علة الكرم – ولم نذكر بحمد الله شيئاً في هذه الغرائب ، وطريفة من هذه الطرائف ، ألا ومعها

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أوخبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، وممن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى بالهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الاودية – ونحن حفظك الله إذا استنطقنا الشاهد وأحلنا على المثل ، فالخصومة حينئذٍ إنما هي بينهم وبينها ، أن كنا نحن لم نستشهد إلا بماذكرنا وفياذكرنا مقنع عند علمائنا الا أن يكون شيء يثبت بالقياس ، أويبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه ولتثبيته وإظهار حجته "[٦٨].

الخاتمة :

وبعد هذه الرحلة في النتاج الجاحظي لاسيما رسائله المتعددة الالوان والأشكال ، وعلى أثر تقديمنا لهذه الشواهد العديدة ، على أن للجاحظ جانبه الصحفي الممزوج بالادب، فلا نجده بعيداً عن صحافة اليوم بموادها وأنماطها التحريرية . وبعد أن أقمنا الجسور بين هذا النتاج الذي اعتبرنا بعضه أدباً صحفياً ، وبعضه الثاني بمثابة جذور لفنون التحرير وبعضه الثالث طلائع متقدمة لها ، بينما انطبق بعضها الرابع عليها تمام الانطباق لاسيما من زاوية المقال الصحفي ، وهو ماسبق به أدباء عصره ، والعصور السابقة عليه فجاز أن يكون بذلك كله أول الصحفيين الذين عرفتهم لغة العرب .

- كان الجاحظ بنتاجه وآثاره أديباً وصحفياً وباحثاً وعالماً بل أقول كان فيلسوفاً أيضاً ، كان كل هؤلاء معاً ، وكان أكثر من كل هؤلاء ، اجتمعوا جميعاً في شخصه ، واتفق اجتماعهم عليه ، وكانوا من مكوناته ، أو من معالم شموليته .
- موسوعية الجاحظ جعلته الأقرب مكاناً إلى اللون الصحفي مما أزعم بريادته الصحفية على المستوى العربي حتى اصبح بمفهوم اليوم "الكاتب الصحفي"بكل ماتمتد اليه الكلمة من أبعاد وأطراف ، وما يتصل بهامن جانب ، وماتوحيه من ظلال أيضاً، وكان من طبقة المحررين الشموليين الموسوعيين الذين نعنيهم عندما نقول أن فلاناً هو محرر صحيفة "كذا" أو مجلة "كذا"أنه ليس المحرر العادي ، وإنما كبير المحررين ، وربما رئيس التحرير نفسه .
- لرسائل الجاحظ تكاد تكون أقرب إلى طابع المجلة ، وإلى طابع الصحيفة الأسبوعية ، منه إلى طابع الصحيفة اليومية تماماً كما أن الجاحظ نفسه بفكره وتوجهاته ، وغزواته لأكثر من موقع ، يكاد يكون أقرب إلى طابع " محرري وكتاب المجلات" قبل محرري وكتاب الجرائد اليومية .
- قد تشابه عمل كاتب الادب وكاتب الصحافة او محررها معاً إذ يكون الأخير في بعض الأحيان من هؤلاء الذين دخلوا الصحافة من باب الأدب ، أو دخلوا الأدب من باب الصحافة ، فهم من الصحفيين الأدباء ، أو هم من الأدباء الصحفيين وهذا مالمسناه في نتاجات الجاحظ التي تمت صلته الى أدب الصحافة على الرغم من معاصرتها .
- أقتراب صورة الصحفي الملتقطة بواسطة الكاميرا مع صورة الجاحظ القلمية فهو رجل التصوير

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

الفوتوغرافي الذي يصور الواقع من غير تشبيه ولا تلوين فيبرزه كما هو بألفاظ تدل على عناصر جميعها ، وتوضح خفايا جميعها ، وهذا الواقع يتناوله الجاحظ في الحياة والأعمال كما يتناوله في النفوس، كلامه صورة حقيقية كاملة الأجزاء بعيدة عن التمويه والتزيين تنطق بحقيقتها من غير مداورة ولا تعقيد، فهو يكتب كما يتكلم، كالمصور الذي يلتقط صورة كما يرى.

- لم يسخر الجاحظ صوره الأدبية في مقالته على جوانب ذاتية ، قدر تركيزه على جوانب موضوعية وواقعية ومجتمعية وهذا مالمسناه عند الأدباء الصحفيين .
- إن لغة الجاحظ وإسلوبه قد قربنا من لغة الصحفي وإسلوبه ، لواقعيته التي يعيشها بين الناس وتحدثه عنهم وبهم .
- يعد الجاحظ في مقالاته الكاريكاتورية والنقدية الفارس الأول بلا جدال ، فلجأ لهذا المقال ، لما رأى الثغرات تنتشر وجوانب السلب تزخر بهذا المجتمع ، كانت الفكاهة والنقد بمعناها القريب من الأذهان هي إحدى أسلحته التي حققت – مجتمعياً- ماكان يجب أن تحققه .
- من خلال مقالات الجاحظ لمسناه يعايش المجتنع ، ويعايش أحداث عصره معايشة كاملة ، في جوانبها المختلفة التي أزدحم بها هذا العصر نفسه دينية وعلمية وثقافية وأدبية واجتماعية ، وحتى ما اتصل بها من جوانب الفن والطرب أو اللعب واللهو ، وهذه المعايشة يتجلبب بها رجال الصحافة .
- مقالات الجاحظ شاهد على عصره وهي مرآة للسنوات التي عاشها ، هي خير شاهد على صحافة عصره بالأسلوب المخطط نفسه والذي جمع كل هذه المقالات السائدة ، والتي كانت جديدة على القراء والناس وقتها .
- نحس الجاحظ في مقالاته راوية وإخبارياً ومؤرخاً ، وجميع هؤلاء يمتون بصلة قربى كبيرة إلى رجال الأخبار وإلى مندوبها ومحرريها دون أن ننسى أو نتجاهل طابع عصره نفسه.
- عكست مقالات الجاحظ حصة الأدبي والصحفي معاً لاسيما المقال الصحفي والنقدي والفكاهي من خلال الصورة البالغة الدقة ، صدق التعبير ، واقعية النقل ، التي قدمها لعدد كبير من الأشخاص الذين عرفهم المجتمع العباسي عامة ، والبغدادي والبصري خاصة .

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

الهوامش

١- لسان العرب ، ابن منظور : مادة (فنن).

٢- سورة الرحمن ، اية ٤٨.

٣- لسان العرب مادة (فنن)

٤- المكان نفسه .

٥- قاموس البستان ،عبد الله البستاني ، مادة (فنن)

٦- ينظر : نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي ، حسين نصار:٣.

٧- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ، مشيال عاصي: ١٨٤

٨- * فتح الباري شرح حديث البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، حديث رقم (٢٤٦٧) ، صفحة ٢٦٩. لسان العرب ، مادة (ق و ل).

٩- فن المقال الصحفي، عبد العزيز شرف: ١٥ .

١٠- ديوان أوس بن حجر ، تح : محمد يوسف نجم : ١٠١.

١١- ديوان مروان بن أبي حفصة ، تح : د.حسن عطوان : ٧٥.

١٢- دليل الناقد الادبي و نبيل راغب :١٨٩.

١٣- المخصص ، أبوعلي علي بن اسماعيل بن سيدة : م ٦/٤.

١٤- المكان نفسه .

١٥- سورة الاعلى ، اية ١٩ .

١٦- لسان العرب مادة (ص ح ف)

١٧- الصحافة بين التاريخ والادب ، محمد سيد محمد:٧.

١٨- مدخل في علم الصحافة ، عبد العزيز الغنام : ١٢.

١٩- المصدر نفسه :١٣

٢٠- لسان العرب، مادة : (رس ل) .

٢١- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، ١٩٥٤: ٩٢٠/١.

٢٢- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري: ٣٩٣.

٢٣- التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف (ت ٨١٦هـ) ، ١٩٨٦م.

٢٤- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تح: محمد رضوان، (١٤١٠هـ): ٣٦٣.

(*) ينظر : رسائل الجاحظ دراسة في شعرية النثر العربي : للباحث ، اطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة البصرة، كلية التربية ، طبعت على آلة الحاسبة ، عام ٢٠١٣م: ٢٠ .

٢٥- ينظر: الجاحظ حياته وآثاره، طه الحاجري : ١٧٨-١٧٩.

٢٦- المقال الصحفي ، محمود ادهم : ١٣.

٢٧- فن المقال الصحفي :٢٠.

٢٨- المقال الصحفي :٣٣.

٢٩- الجاحظ حياته وآثاره :١٥٠.

٣٠- ينظر :المقال الصحفي : ١٩٥.

٣١- رسائله ، ج٤: ٦٩.

٣٢- رسائله،ج ١: ١٨٠ .

٣٣- رسائله ، ج١ : ٣٧٥.

٣٤- رسائله،ج ٣ : ١٢٠.

٣٥- رسائله،ج ٣ : ١٣٠.

٣٦- رسائله ،ج ٤ : ٣١١

٣٧- رسائله ،ج ٣ : ٢٨٣ .

٣٨- رسائله، ج ٣ : ٢٢١

٣٩- رسائله ،ج ٤: ١٩ .

٤٠- رسائله، ج١ : ١٧٣.

٤١- رسائله ، ج٢ : ١٥٠ .

٤٢- مدخل في علم الصحافة:٤٤.

٤٣- رسائله ، ج ٢٢٩/٤ -٢٣٠.

٤٤- رسائله ، ج٢٣٥/٤-٢٣٦

٤٥- النقد ، شوقي ضيف : ٩.

٤٦- رسائله ، ج ٤ : ١٧٧.

٤٧- المقال الصحفي :١٦٥ .

٤٨- رسائله ج٢: ١٨٤-١٨٥.

٤٩- رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها، للجاحظ :٣٣٦.

٥٠- رسائله :ج ١٦٨/٢.

٥١- رسائله ،ج ٣:٣

٥٢- رسالة التربيع والتدوير، تح: فوزي عطوي ،الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت _ لبنان ،١٩٦٩،د.ط: ٤١ .

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

٥٣- اينظر : لمدخل في فن التحرير الصحفي ، عبد اللطيف حمزة : ٢٥٢.

٥٤- المكان نفسه .

(*) يقصد بالرجل ((أحمد بن عبد الوهاب)).

٥٥- فن الأدب : توفيق الحكيم : ٢٣.

٥٦- المكان نفسه .

٥٧- ينظر : شعرية النثر في رسائل الجاحظ : الباحث

٥٨- المكان نفسه .

٥٩- رسالة التربيع والتدوير: ٦٦ . *) يقصد أحمد بن عبد الوهاب.. ** لَحِبَ أي أهرمه الكبر، ورجل ملحوب قليل اللحم ضامر.

٦٠- رسائله ،ج ٤ : ١١٦

٦١- المقال الصحفي ، محمود ادهم :١٥.

٦٢- المكان نفسه.

٦٣- رسائله :ج ٢: ٢١٦.

٦٤- رسائله ،ج ١: ١٢٩.

٦٥- رسائله ،ج ١ : ١٣٧.

٦٦- رسائله ،ج ١: ٢٨٣.

٦٧- رسائه ،ج ٣ : ٢١٠.

٦٨- رسائله ،ج ٣: ٢١٤.

قائمة المصادر:

- القرآن الكريم

١- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٧٣م.

٢- التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف (ت ٨١٦هـ)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.

٣- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تح: محمد رضوان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٤- الجاحظ حياته وآثاره، طه الحاجري، دار المعارف، مصر،١٩٦٢م.

٥- دليل الناقد الادبي ، نبيل راغب ، مطبعة غريب القاهرة –مصر ، ١٩٨١.

٦- ديوان أوس بن حجر ، تح : حمد يوسف نجم ، بيروت ، ١٩٨٠.

٧- ديوان مروان ابن أبي حفص ، تح : د. حسن عطوان ، دار المعارف ،مصر ، ط٣ ، ١٩٨٥.

٨- رسالة التربيع والتدوير، تح: فوزي عطوي ،الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت _ لبنان ،١٩٦٩،د.ط:

٩- رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثامن، ١٩٦١م-١٩٨١هـ.

١٠- رسائل الجاحظ ، أبي عثمان عمرو بن بحر و تح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ١٩٦٤-١٩٦٥.

١١- شعرية النثر في رسائل الجاحظ : الباحث ، اطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، طبعت بآلة الحاسبة ، ٢٠١٣-٢٠١٤.

١٢- الصحافة بين التاريخ والادب ، محمد سيد محمد، دار الدعوة، حماة، سوريا، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

١٣- فتح الباري شرح حديث البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٣)راجعه : قصي محب الدين الخطيب ، دار الريان للتراث -مصر، ١٩٨٦م

١٤- فن الأدب ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة . ط٢، ١٩٩٢.

١٥- فن المقال الصحفي ، عبد العزيز شرف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١.

١٦- قاموس البستان ، عبد الله البستاني ، مطبعة لبنان ، ناشرون ، ط١، ١٩٩٢.

١٧- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، شركة فن الطباعة، بيروت ،ط٥، ١٩٥٤.

DOI: 10.18018/URUK/016-9/25-50

١٨- لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، مطبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

١٩- المخصص ، أبوعلي علي بن اسماعيل بن سيدة ، وزارة المعارف ، القاهرة، ١٩٨٥.

٢٠- مدخل في علم الصحافة ، عبد العزيز الغنام ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٩٨م.

٢١- مدخل في فن التحرير الصحفي ، عبد اللطيف حمزة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

٢٢- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ : مشيال عاصي ، مؤسسة ، نوفل بيروت ، ط٢، ١٩٨١.

٢٣- المقال الصحفي ، محمود ادهم ، ، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤.

٢٤- نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي، حسين نصار ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١، ١٩٥٤.

٢٥- النقد ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩.